مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 14 العدد: 01 السنة 2022 ص 432 - 449

تاريخ الإرسال: 2021/03/03 تاريخ القبول: 2021/05/01
تاريخ النشر: 2022/03/17

التنوع اللغـوي وتعدد اللهجات في المجتمع الجزائري

Linguistic Diversity and the Multiplicity of Dialects in the Algerian Society

بوفاتح عبد العليم [1]، شعيب مقنونيف [2]
جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان، [1]abdelalimboufatah@yahoo.fr
جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان، [2]meg_chaib@yahoo.fr

الملخص:

تناول هذا المقال ظاهرة تعدد اللهجات الجزائرية في إطار "التنوع اللغوي" على أنها واقع حاصل بما له وما عليه، باعتبار أنّ هذه الظاهرة نابعة من طبيعة المجتمع ولها ارتباط وثيق ببـيئة الإنسان وظروفه ومحيطه الذي يعيش فيه بشكل عام. ولا سبيل إلى فصل اللهجة عن العوامل الاجتماعية والثقافية والنفسية والتاريخية وغيرها.

فاللهجة تنشأ من اللغة وتنبع منها، فهي تتأثر بها وتأخذ منها، واللهجات الشعبية لها خصائصها التي تميزها وتطبعها بطابعها الخاص المستمد من الثقافة العامة للمجتمع والبيئة التي ينشأ فيها الناس والمحيط الذي يعيشون فيه؛ فهي تعكس حياتهم وواقعهم. كما أنّ لكل منطقة لهجتها التي تميزها عمّا سواها، على الرغم من التقارب الكبير الذي نجده بين اللهجات الشعبية في القطْر الواحد، وبدرجة أقل في الأقطار المتعددة.

الكلمات المفتاحية: اللغة، اللهجة الجزائرية، التنوع اللغوي، استعمال، مجتمع.

Abstract:

This article deals with the multiplicity of Algerian dialects as a phenomenon in "linguistic diversity", which is regarded as a

reality originating from the nature of society and is also closely related to the environment, atmosphere, and surroundings of the human being. There is no way a dialectis to be separated from the social, cultural, psychological, historical, and other factors; it emerges and may bein fluenced by the language. Popular dialects have a special characteristic that stem from the general culture of a society and the environment, as it reflects their lives and realities. Each region in the same area has its own distinct dialect, which is different from the others.

Keywords: Language, Algerian dialect, linguistic diversity, usage, society, features.

المؤلف المرسل:بوفاتح عبد العليم ، ABDELALIMBOUFATAH@YAHOO.FR

1. مقدمة:

تندرج ظاهرة التنوع اللغوي ضمن إطار علم اللغة الجغرافي أو ما يسمى في الدرس اللساني الحديث بعلم اللغة الاجتماعي(اللسانيات الاجتماعية) فهو تسمية لعلمين هما :علم اللغة وعلم الاجتماع أو الجغرافيا، وهما يبدوان منفصلين متباعدين، وتكمن قيمة هذا العلم في إيضاح طبيعة اللغة بصفة عامة وإيضاح الخصائص المحددة للغة بعينها.فعلم اللغة إذاً يتصل بلغة الإنسان وما يتعلق بهما من فروع وقضايا لسانية، وعلم الجغرافيا يتعلق بالبلدان والمناطق والمناخ وما يتصل بها من مسائل بعيدة عن اللغة، لكنّ الذي يقرّب بينهما هو كون اللغة متصلة بحياة الإنسان وبيئته التي لا يخفى تأثيرها في طريقة تواصله وأساليب تعبيره. [1]

كما أنّ هذا العلم يعنى بدراسة اللغة داخل ميدان جغرافي ضمن نطاقها الاجتماعي أي لدى المتكلمين بها أصحاب الرقعة الجغرافية التي تربطها بهم علاقة تأثير وتأثر تحكمها قوانين المجتمع وعاداته، كما أن له الأثر الأبرز في تطورها ونموها. ومن البديهي أن استعمال اللغة، بمعنى الأداء الكلامي، يحدث في سياق

اجتماعي وعليه، فلا غنى عن المنظور الاجتماعي في دراسة اللغة وتداول الكلام تأثراً بعدد من العوامل؛ ففي هذا الإطار تتم دراسة اللهجات ضمن ما يسمى بالتطبيق اللغوي داخل المجتمع أو استعمالات المتكلمين للغة في إطار الواقع الاجتماعي.

كما تُعرف اللسانيات الاجتماعية بأنها تتناول دراسة العلاقة بين اللغة والظواهر الاجتماعية وبيان أثر المجتمع من نظمه وتاريخه وأصوله ... في مختلف الظواهر اللغوية. كما يقرر الدكتور كمال بشر بأن " علم اللغة الاجتماعي ينظم كل جوانب بنية اللغة وطرائق استعمالاتها التي تربط بوظائفها الاجتماعية والثقافية والحضاري."[2]

وفي معرض حديثه عن استعمالات اللهجة في الوسط الاجتماعي، يعرف فيشمان هذا الفرع من اللسانيات أي الفرع الذي يتناول استعمال اللغة في المجتمع بأنه " العلم الذي يبحث في التفاعل بين جانبي السلوك الإنساني (استعمالات اللغة) والتنظيم الاجتماعي للسلوك."[3]بمعنى أنّ اللهجة ما هي إلا تأدية عامية للغة، تستعملها جماعة معينة تربطهم دائرة جغرافية واحدة ويحملون خصائص لغوية مشتركة مما يعكس الأداء الفردي لهذه الجماعة. ومن هنا نستخلص أنّ استعمال اللغة واللهجات المتفرعة عنها يدخل ضمن الإطار الاجتماعي التطبيقي الميداني الذي حظي باهتمام الدارسين للاستعمالات اللغوية ذات العلاقة المباشرة بالسلوك الاجتماعي تأثراً وتأثيراً..

2. تنوع اللغة وحيويتها في المجتمع:

لقد أصبح من المهمّ النظر في قضية التنوع اللغوي وما يندرج ضمنها من تعدد اللهجات، من حيث هي ظاهرة لغوية تفرض وجودها في المجتمع الجزائري كما في سائر المجتمعات، ويثبتها الواقع المشهود ولا يبطلها نفي أو جحود؛ وذلك على الرغم من اختلاف المواقف بين فئات المجتمع من هذه الظاهرة، وكيفية تعامل كل منها معها.وهذه الظاهرة ناشئة من اللغة باعتبارها كائنا حياً وكياناً متصلاً بكيانات أخرى

تقاربه حيناً وتباينه حينا آخر، وذلك بقدر ما يكون قادراً على الاستمرار في الحياة على طريق النمو والازدهار، لا قابعاً بلا حراك وآيلاً إلى الزوال والاندثار..

وبما أنّ اللغة ظاهرة حياتية اجتماعية فقد غدتْ من أكثر الظواهر التصاقاً بحياة الأفراد،إذْ إنها تخضع لمقاييس المجتمع وأعراف هو تقاليد هو ثقافته، كما أنها تكشف عن مستوياته الثقافية والمعرفية والحضارية..فهي قطعة من المجتمع تنشأ فيه وتسير معه وتتغذى بغذائه، وتنهض بنهوضه، وتركد بركوده. فتاريخ اللغة يحمل في ثناياه تاريخ المجتمعات والحضاراتِ الإنسانية على اختلافها وتنوعها..[4]

وإذا كانت اللغة هي أداة التواصل ووسيلته التي لا غنى عنها، وإذا كان التواصل غايته تلبية حاجيات ومتطلبات متنوعة وآنية للإنسان، فإن ذلك يعني أن هذه الحاجيات والمتطلبات تتنوع وتتجدد مع الزمن، وهذا يستدعي لغة لها قابلية المسايرة الزمانية لترافق مسيرة الإنسان في الحياة، فإن تأخرتْ أو تراجعتْ عن حضورها الدائم بين مستعمليها، فإن ذلك سيدفعهم إلى البحث عن وسيلة أخرى تلبي حاجياتهم اليومية المتجددة والمتطورة في الوقت ذاته؛ وما هذه الوسيلة الذي يَنْشُدونها إلاّ اللغة التي يجدون فيها ضالتهم، ويستسهلونها في واقع الاستعمال والتداول، بصرف النظر عن قيمتها العلمية أو قِدَمها وعراقتها وأصالتها.. وهذا من أبرز الأسباب التي تؤدي إلى ظهور لغات أو لهجات متعددة بين المتكلمين، على ما يجدون فيها من السهولة والسلاسة وتلبية حاجياتهم المتعددة ومتطلباتهم المتجددة بأقل جهد وفي أقصر وقت. ولعل هذا أبرز عامل في انتشار بعض الظواهر اللغوية واللهجية في المجتمع.

إنّ العالَم اليوم يعيش ثورة تكنولوجية متسارعة في أحداثها وفي تدفق المعلومات فيها كالسيل الجارف، ممّا أدّى إلى هيمنة المظاهر العصرية على حياة الإنسان، بحيث أصبح متفاعلاً معها أحياناً وتابعاً لها في بعض الأحيان، عن طوع منه أو عن كره، إذْ غدتْ واقعاً مفروضاً عليه إيجاباً أو سلباً، وهذا يفرض عليه التعامل معها تعاملاً حتمياً وفقا لما توفر لدية من الآليات.

3. التنوع بين اللغة الأم واللغات الوافدة:

لعلنا نطرح ههنا إشكالية مفادها: ما مدى إمكانية استقرار المجتمع على استعمال لغة أجنبية إلى جانب اللغة الأم، إذا كانت هذه اللغة الأجنبية قد عرفت انتشاراً واسعاً وأصبحت واقعاً في أوساط المجتمع ؟ هل ينطبق عليها ما ينطبق على اللغة الأم ؟ أم أنها تبقى لغة أجنبية على اعتبار أنها وافدة، بصرف النظر عن سعة انتشارها وكثرة تداولها ؟

إن الظروف الاجتماعية والثقافية التي ترتبت على مختلف التعاملات الاقتصادية وغيرها، تحتّم على اللغة الأم أن تنفتح على ما يفد عليها من اللغات أو اللهجات المتنوعة تبعاً لسُنّة التأثير والتأثر.. غير أنه ينبغي التنبيه على أنّ اللغة الأم إذا لم تكن لديها القابلية للتطور ومسايرة المستجدات العصرية، فإن العلاقة بينها وبين اللغات الأخرى التي تحلّ بدارها تصبح علاقة تنافس وإلغاء؛ لذلك وجب على هذه اللغة أن تكون مؤثرة بقدر ما تكون متأثرة، وبهذا تكون العلاقة بينها وبين سائر اللغات أو اللهجات علاقة تكامل وتقارب وتبادل واقتراض، لا علاقة تنافر وتنافس وإقصاء..

هذا، وإنّ أيّ لغة يقاس نجاحها وصمودها بقدر مسايرتها للواقع بكل متغيراته ومستجداته واستيعابها لأشكال التطور بما لها من مرونة وطواعية، كما هو الشأن بالنسبة إلى اللغة العربية التي حافظتْ على ديمومتها وبقائها وثباتها ولا تزال كذلك، بما لها من خصائص ومميزات تستجيب لكل المتغيرات.. وقد تجلى ذلك في حضور العربية في عقول متكلميها وفي مخيلاتهم، على أنها جزء من التفكير وصناعة الحياة، وليس مجرد أداة للتواصل والتبليغ.. ذلك أنّ اللغة هي الوسيلة المثلى في " نقلا لخبرة الإنسانية،والتعبير عن الفكر واكتساب المعرفة، وعلى هذا فاللغة ضرورة

حتمية لتقدم الثقافة والعلم،لأن الألفاظ كما يقولون حصون الفكر، وبالتالي فلا وجود للفكر من دون اللغة.."[5] وبهذا تصبح اللغة جزءاً من كيان الأمة وعنوانا لوجودها، وليست مجرد وسيلة للتفاهم بين المتكلمين، فهي ليست صوتا ومعجما وبنية وتركيباً وحسب، وإنما هي ثقافة راسخة وحضارة شامخة يتوارثها أبناء المجتمع الواحد ويصدّرونها إلى سائر المجتمعات. فهي تُعدّ " من أعظم المبتكرات التي أظهرها التطور البشري، في جبال وقوف عندها لنرى الدور الذي تؤديه على وجه الدقة،والنصيب الذي تقوم به في التطور الفعلي،ثم ما هي صلات الفرد والجماعة فيما يختص بإنتاج هذه الأداة القيّمة.."[6]

وقد عبّر البشير الإبراهيمي عن هذا المعنى بخصوص اللغة العربية على أنها قطعة من الوجود العربي، وميزة من مميزات العرب،ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة....لأنّها كانت لسان معارف البشر،وترجمان حضارته، وناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب وهادية العقل الغربي الضال إلى موارد الحكمة في الشرق، وكانت في جميع الأوقات مستودع آداب الشرق وملتقى تياراته الفكرية، ومازالت صالحة لذلك، لولا غبار من الإهمال علاها،وعاقٌّ من الأبناء قلاها، وضيْمٌ من لغات الأقوياء المفروضة دخل عليها.[7]

لكن إصلاح أوضاع اللغة العربية لم تتحقق أهدافه المتوقعة منه، إذ لا تزال تعترضه صعوبات،نظر العدّة عوامل منها :الصراع الحادّ بين اللغات الحضاريّة في العقود الأخيرة على وجه الخصوص ومنها وضع العالم العربيّ اليوم بالمقارنة مع الدول المتقدمة.[8]وقد كان هذا ممّا أدّى إلى تعدد اللغات في الأوساط العربيّة واختلاف المستويات اللغويّة فتشعبَّتْ لهجاتها وبدأت العربية تضعفُ وتفقِدُ من متونها فيظلّ توجها لاهتمامات أكثر إلى إصلاح القواعد ومحاولة تيسيرها تارةً، وتارةً أخر بمحاولة تطويع اللهجات لخدمة الفصحى وغير ذلك... ولعلّ الأثر الكبير لها واضح في لغة الصّحافة لكونها تُشكلُ الحيّز الأكبر من الاستعمال،وفيها تتجلّى إشكاليّة

التلقّي بكلم ظاهرها،وهي أخطر المستويات نظرا لاستعمال لغة الإعلام لمصطلحاتٍ مهيْمنةً على جميع مستويات الاستعمال، بما يشمل الفصحى والعامية واللغات الأجنبية..[9]غير أن اللغة الأم تبقى هي الأصل الذي لا بديل عنه على الرغم ممّا قد تتعرض له من الإهمال من بعض متكلميها.

وهنا يشار إلى أن اللغة الوافدة لا ترتقي إلى رتبة اللغة الأصلية من حيث الاستعمال على اعتبار أنها تأتي عن طريق الغزو أو الفرض أو التبعية، فلا هي لغة رسمية و لا وطنية، وبهذا تكون حدودها في العادة معروفة،واستعمالها لا يقود إلى الإبداع بقدر ما يقود إلى التبعية المطلقة..[10]

4. التنوع بين اللغة واللهجة:

تقاطع مصطلح اللهجة مع مصطلح اللغة في استعمالات القدماء، إذْ كانوا يستملون مصطلح (اللغة) ويريدون به (اللهجة) فيقولون: لغة قريش، ولغة تميم، ولغة الحجاز، ولغة هذيل، وغيرها.. غير أنّ هذه اللهجات عندهم ما هي إلاّ صور متفرعة عن اللغة العربية الفصيحة.. وأمّا في الاصطلاح الحديث فاللهجة تعني بالضرورة الأداء المختلف عن اللغة الأصل، إذ الاختلاف شرط في تسميتها باللهجة، وهو اختلاف متعدد المناحي، غير أنّه لا يُبْعد هذه عن تلك، لأنها مستمدة منها..

إنّ اللهجات سواء أقلّتْ أم كثُرتْ هي في الأصل متفرعة بالضرورة عن لغة واحدة تُعَدّ اصلاً لها، وتندثر هذه اللغة وتبقى لهجاتها فيصيبها كثير من التغيير والتحريف، وربما تأثرت هذه اللهجات بلهجات أو لغات أخرى؛ وقد تبقى لهجة أو أكثر من لهجة محافظة على اتصالها باللغة التي انبثقت منها، كما هو الحال في اللهجات العربية المنبثقة من الفصحى. وعليه، فإنّ " تلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها باللغة، فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص، فاللغة تشمل عادة على عدة لهجات لكل منها ما

يميزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة من غيره من اللغات. "[11]

هذا، وفي كثير من الأحيان تُستعمل كلمة لهجة أو لغة، وذلك بتداول كلمات كثيرة نرددها دون التزام بتدقيق المعنى وتحديد المضمون وبيان الإطار، ودون اعتراف بما يطرأ على هذا كله من تغير حركة الزمان وصراع المجتمعات أو ما تضيفه العلوم من معطيات جديدة، أو ما تشيره لنا من اختلاف الرؤى بين النقاد والمؤلفين، هكذا تبدو معركتنا عند التحديد والتدقيق هي صراع حول موضوع متعارف عليه ونزاع على ساحة مبهمة المعالم ومتشعبة بمختلف المدلولات.

5. واقع اللهجات الشعبية في المجتمع الجزائري وعلاقتها باللغة الفصيحة:

يعرف ابن فارس اللهجة العامية في المقاييس بقوله :"عمَنا هذا الأمر يعُمنا عموما، إذا أصاب القوم أجمعين، والعامة ضد الخاصة، يقال فلان ذو عُمية : أي أنه يعمّ بنصره أصحابه لا يُخصَ، ويقال: عمّم اللبنُ :أرغى."[12]وجاء في معجم العين للخليل العُميةُ: الضَلالة، وفي لغة عمية، والاعتماءُ: الاختيار، والمعامي: الأرض المجهولة." [13] وتمثل العامية " مجموعة من الخصائص اللغوية التي تنتمي إلى بيئة معينة، ويشترك فيها جميع أفراد هذه البيئة التي تعد جزءا من بيئة أكبر تضم عدة لهجات، وتتميز بعضها عن البعض بظواهرها اللغوية، غير أنها تتفق فيما بينها بظواهر أخرى تسهل اتصال أفراد تلك البيئات بعضهم ببعض وفهم ما يدور بينهم من حديث."[14]ويرى بعضهم أنّ العامية "هي اللغة المستعملة اليوم ومنذ زمان بعيد، في الحاجات اليومية، وفي داخل المنازل، وفي وقت الاسترخاء والعفوية. "[15]

هذا، وتُعرف اللهجة العامية بأنها طريقة الحديث التي يستخدمها السواد الأعظم من الناس وتجري بها كافة تعاملاتهم الكلامية، وهي عادة لغوية في بيئة خاصة، وتكون هذه العادة صوتية في أغلب الأحيان، تتعايش مع الفصحى، وهي لغة

المشافهة في المعاملات اليومية داخل الأسرة والشارع والسوق وغيرها، وتتميز بالاقتصاد والإهمال والاقتباس.[16]

لقد عاشت العامية إلى جوار الفصحى في جميع مراحل تاريخ الحضارة العربية قديما ولم تسبب لها حرجا، أو تطغى على مجالاتها أو ترغب في محوها والانفراد بالتعبير، كما أن العامية تظل أبدا متصلة بالفصحى كونها ليست ظاهرة طارئة محدثة بل هي ظاهرة طبيعية وموجودة في كل اللغات الحية.[17]

لكن ثمة من يعتقد أنّ في اقتران اللهجة العامية باللغة الفصيحة تأثيراً سلبياً، ولا يأبه للتقارب الحاصل بينهما؛ وهذا ما نجده مثلاً عند بعض الباحثين الذين دفعهم إلى هذا الاعتقاد ما عايشوه من صراع لغوي بين اللغة الأم واللغات الوافدة أو اللهجات المحلية، وهذا الصراع أذكته بعض الاتجاهات الرامية إلى إحلال لغة أو لهجة مكان الأخرى، وكانت العربية الفصحى دائما هي الضحية التي يسلَّط عليها هذا التجنّي، كما "أن الاستعمار استغل هذه الظاهرة الطبيعية ليحارب الفصحى بلهجاتها المتعددة، وقد وجد في اختلاف اللهجات الإقليمية ذريعة للقضاء على اللغة الواحدة وقد سارت هذه الحملات في اتجاهين: فمن ناحية تكشف عن جمود الفصحى وتعقدها وبداوتها وتخلفها عن حاجة العصر، وتلقي عليها مسؤولية تخلفنا وانحطاطنا، ومن ناحية ثانية تدعو إلى العامية وتضيف إليها مزايا الفصاحة والسهولة والمرونة، وترى فيها الوسيلة المثلى لتثقيف جماهير الشعب وتعليم الأميين." [18] ومثل هذه الاتجاهات لا تروم تطوراً أو ازدهاراً للمجتمع في ظل تآلف الكيانات اللغوية فيه، بل تبيّت لإلغاء اللغة الفصحى من أجل إحلال العامية مكانها ليس إلاّ، وهذا هو هدفها وغايتها؛ فهي بذلك مردودة خارجة عن نطاق التعايش والتكامل واللغوي للوصول إلى غايات أسمى تعود بالنفع على المجتمعات..

إن ظاهرة وجود العامية إلى جانب العربية الفصحى، ظاهرة لغوية حتمية يفرضها واقع الحال في جميع دول العالم، ولكل منهما مجالاته واستعمالاته، وتعرف

اللهجة العامية بأنها طريقة الحديث التي يستخدمها السواد الأعظم من الناس، وتجري بها كافة تعاملاتهم الكلامية، وهي عادة لغوية في بيئة خاصة تكون هذه العادة صوتية في غالب الأحيان، وتعدّ العامية الجانب المتطور للغة، الذي يشمل البعد عن اللغة الأم ويستخدمه أفراد المجتمع وطبقاته المختلفة في الاستعمال اليومي، فهذه العامية سيطرت على العربية الفصحى وأخذت مكانتها، وهذا من أجل تسهيل عملية الاتصال والتواصل اليومي بين أفراد المجتمع، بالإضافة إلى أنها دخلت المؤسسات التعليمية إذْ نجد المتعلمين يتحدثون بها داخل الأقسام الدراسية، ولا يستطيعون الإقلاع عنها، لأنهم ألفوها وتعودوا على استعمالها في كل أحوالهم؛ حتى إنّ هناك قولاً مفاده أنّ الأصل في وجود اللغة هو اللهجات على اعتبار أنّ اللهجات أقدم معرفة من اللغة لدى الإنسان، إذ استعملها (أي اللهجات) لتلبية حاجاته والتعبير عن متطلباته داخل بيئته، وبما أنّ الإنسان اجتماعي بطبعه وابن بيئته، فقد احتاج إلى اللغة ليتواصل مع غير فكانت اللغة سبيلا لهذا التواصل داخل المجتمع، ومن هنا وردت تساؤلات حول طبيعة هاته العلاقة وما مدى تأثير المجتمع في اللغة وتوجيهه لطرق استعمالها.

والحقّ أنّ فكرة البحث في تداولية اللغة عند المتكلمين بها، لا تقف عند حدود وصف ما هو كائن أو حاصل في الاستعمال، بل إنّها تمهيد للبحث عن المرتكزات اللسانية والثقافية التي تؤطرها والسنن التي تتحكم في إنتاجها، والقبض على آليات استعمالها، ومن ثم وضع استراتيجية مناسبة لها في كونها ظاهرة اجتماعية موجودة بالقوة، وحتمية إنسانية لا مناص من حدوثها.[19]

كما أنّ " استعمال اللغة عند الأفراد سلوك لا يختلف عن أي سلوك آخر يصدر عن المجتمع، وكما أنّ الأعراف والتقاليد والعادات ومظاهر السلوك العام ليست من وضع الأفراد وإن كان للأفراد جانب فعلي في حدوثها؛ وإنّما هي تراكم اجتماعي متنوع ، ينمو ويتفاعل تحت وطأة ظروف خاصة، فليست اللغة المتجسدة في الكلام إلا

مظهرا من مظاهر هذا السلوك الاجتماعي القسري الذي يجُـبْـَرُ عليه المتكلم، وإن خالف بذلك العرف اللغوي."[20]

ولقد وجدت الحاجة الاجتماعية إلى التواصل وسيلتها المثلى في اللغة ، لكنها وسيلة مرهونة بالعرف الاجتماعي العام الذي يفترض التلقائية والاستسلام المطلق لإكراهات الاستعمال اللغوي ومراعاة الخصوصية الاجتماعية ولكنها ليست بعيدة عن اللغة وعن الخصوصية اللغوية النمطية واللسانية القومية والخصوصية الكلامية. ذلك أن تفرع اللغة العربية الفصيحة إلى عدة لهجات له عدة عوامل جعلت منها لغة بديلة.ويقول بعضهم في هذا الشأن: "إن السبب الرئيسي لتفرع اللغة إلى اللهجات يرجع إلى انتشار اللغة في مناطق مختلفة وواسعة،وإلى استخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس."[21]

نخلص من هذا إلى أنّ المجتمع يكون له اعتباره بكل خصوصياته العرفية والعرقية والثقافية والجغرافية، فهي المؤثر والسلك المدور للغة ضمن عملية تأثر وتأثير، وبدورها تؤثر اللغة بطريقة تجعل منها لغات ولهجات متعددة ومتنوعة بحسب طبيعة ذلك المجتمع.

6. تأصيل اللهجة الجزائرية في المنطقة السهبيـة (نماذج مختارة):

اتفق العرب على أن أفصح لغة هي لغة قريش، وعلى هذا فإن كل اللهجات القريبة من لغة قريش تُعَدّ أكثر اقترانا بها واتصالا بقواعدها، على الرغم ممّا يعتري اللهجة من تحوير وتبديل نتيجة القلب والإبدال ومختلف التغيرات الصوتية والصرفية والتركيبية مقارنة باللغة الفصيحة..

وانطلاقاً من هذا يمكن أن نستدل على أن أقرب لهجة جزائرية للغة الفصحى هي تلك اللهجات المتواجدة في بعض المناطق التي تُعْرَف بأنها الأقلّ تأثرا باللغات الوافدة التي من أبرزها لغة الاستعمار؛ ولعلنا لا نجانب الصواب إذا خصصنا المناطق السهبية الممتدة في غرب الصحراء وشمالها بهذا التميز، وذلك بالنظر إلى

ما نعرفه ونعايشه من استعمال اللهجة في هذه المناطق؛ مع العلْم أنّ هذه الربوع قد شهدتْ هجرة عربية متواصلة عبر العصور السالفة، كما شهدتْ نزوح بني هلال من شبه الجزيرة العربية ، وغيرها من الحركة التي ميزتْ هذه المناطق باعتبارها مناطق عبور واستقرار في آن واحد. ولكنّ هذا لا يعني عدم وجود هذه الظاهرة في سائر المناطق الجزائرية، ذلك أنّ حضور اللغة الفصيحة فيها كثير على الرغم ممّا يشوبها من استعمال الكلمات الأجنبية المحورة في الأوساط الشعبية.

لقد تعددت اللهجات في الجزائر وتنوعت عبر أقطار الوطن، إلا أن ثمة تفاوتاً بينها في درجات اتصالها باللغة الفصيحة هناك بعض اللهجات الجزائرية مازالت تحافظ على صلتها بالعربية الفصحى مع بعض النقائص، ويتجلى ذلك في كون وجود بعض الألفاظ الفصيحة مستعملة في اللهجة العامية إلى يومنا، بل إنّ هناك من يذهب إلى أنّ " معظم الألفاظ العامية الجزائرية فصيحة وإنما أفسدتها العامة بألسنتها، فأخذت تبتعد عن الفصحى..." [22]

وتتأكّد هذه الحقيقة كلّما ابتعدنا عن المدن الكبرى، ولا سيما الساحلية منها، باتجاه المدن الداخلية التي نجدها أقل تأثراً ببقايا لغة الاستعمار، كما نجدها أكثر تمسكاً باللغة الفصيحة وأكثر تداولاً لها حتى في الخطابات المتداولة بين الأوساط الشعبية، وتتجلى هذه الظاهرة أكثر لدى الفئات التي تلقت تعليماً عربياً، أو عاشت في بيـئة أكثر محافظة وتمسكاً بالعادات والتقاليد العربية؛ وفي المقابل نجد هذه الظاهرة تقلّ لدى الفئات التي كان تكوينها أجنبياً أو عاشتْ في بيـئة أكثر اتصالاً بالثقافات الأخرى غير العربية. ولنتبيّن أكثر ما قلناه بوقوفنا عند هذا المثال للشاعر الشعبي الجزائري الأغواطي التخي عبد الله بن كريو، إذْ يقول في مطلع إحدى قصائده :[23]

لا تقنط يا خاطري ساعف لقدار ** واتماهل لمصايب الدهر الفاني
مادامت شدة على من في لعسار ** واللي صابر فوّت الدنيا هاني

فلو تأمّلْنا هذيْن البيتيْن لوجدنا أنهما يكادان يكونان بلغة فصيحة، إلاّ من تغيير بسيط في بعض الكلمات، بحيث ولا يؤدي إلى تغيير في صيغة الكلمة ولا يؤثر على معناها ومراد الشاعر وفهم المتلقي لدلالتها، إذ نجد أن درجة التغيير والانحراف بين لهجة هذه المنطقة واللغة الفصيحة تكاد تكون منعدمة. وما أكثر ما يوجد في هذه اللهجة من هذا القبيل، وفيما يأتي بيان لما قلناه، ويتضح من مقابلة الألفاظ الشعبية في البيتين السابقين بالألفاظ الفصيحة:

لا تقنط: لا تقنط؛ يا خاطري: يا خاطري؛ ساعف: أسعف؛ لقدار: الأقدار؛ واتماهلْ: وتمهّلْ؛ لمصايب: لمصائب؛ الدهر الفاني: الدهر الفاني/ ما دامت شدة: ما دامت شدة؛ على من في لعسار: على من في الأعسار؛ واللي صابر: والصابر، أو، الذي يصبر؛ فوت الدنيا هاني: قضى الدنيا هنيئا .

ما هذه إلاّ عيّنة قليلة وأنموذج بسيط عن ظاهرة التقارب بين اللهجة الشعبية المتداولة بالمنطقة السهبية في غرب شمال الصحراء عموماً وبين اللغة العربية الفصيحة في أرقى مستوياتها.

7. ظواهر صوتية مميزة في لهجة غرب شمال الصحراء الجزائرية:[24]

ينبغي التنبيه إلى أنّ كل لهجة جزائرية لها خصائصها ومميزاتها التي تنفرد بها بين اللهجات الجزائرية، فضلا عن تميزها عن باقي اللهجات العربية؛ وهذا على الرغم من نقاط الالتقاء والاشتراك الكثيرة بين مختلف اللهجات الجزائرية، ثم بينها وبين سائر اللهجات العربية.. غير أنّ الذي يعنينا ههنا هو ما تتميز به لهجة غرب شمال الصحراء من بعض الخصائص والمزايا التي تنفرد بها بين غيرها من اللهجات؛ وهذه الخصائص المميزة صوتية في أغلبها، وتتمثل في عدة ظواهر أبرزها: الإبدال والقلب والتصغير والنحت، وهو ما سيأتي بيانه مع التمثيل..

1.7 ظاهرة الإبدال :

تكون بإبدال بعض الحروف من بعض، عند عقد مقارنة بين اللغة الفصيحة واللهجة الشعبية الجزائرية بمنطقة شمال الصحراء، وهي ما يُصطلح على تسميتها بالمنطقة السهبية.. وهذه بعض النماذج عن ظاهرة الإبدال، وسنقتصر على أشهر ما في هذا الإبدال، وهو إبدال الغين قافا.. وما أكثره في هذه اللهجة، ومنه ما يأتي :

لقواط = لغواط ؛ قا شوية = غير شوية؛ الجهة القربية = الجهة الغربية؛ القيظ = الغيظ؛ (مغبون= مقبون)؛ ونطق القاف قافاً مثلثة، مثل:(يدَرّق: بمعنى يتخفّى ويحتمى).

2.7 ظاهرة القلب:

يتمثل القلب ههنا في تقديم حرف على آخر، على عكس ما هو متداول في اللغة الفصيحة، وهذا النوع من القلب سائد بكثرة في لهجة هذه المنطقة، ويشمل مختلف صيغ الكلمة، ومنه على سبيل المثال ما يأتي:

السمش= الشمس؛ عماه = معاه أي معه؛ قضبو= قبضو أي قبضه؛ الله ينعل إبليس= الله يلعن إبليس؛ رجم= رجب؛ أنعل إبليس= العن إبليس؛ يعجلو خير= يجعلو خير، أي جعله الله خيراً .

3.7 ظاهرة التصغير:

من أشهر الظواهر في لهجة هذه المنطقة ظاهرة تصغير الكلمات، وهي مما تتميز به المنطقة من دون سواها من المناطق. وحتى إن وُجدتْ هذه الظاهرة في منطقة أخرى فهي قليلة جدا، على حين نجدها كثيرة بل لا تخلو منها لهجة أهل هذه المنطقة، وليس الغرض منها التحبيب ولا التحقير ولا غير ذلك مما يُعْرَف من أغراض التصغير في اللغة الفصيحة، وإنما هي عادة لغوية انتشرت بين سكان هذه المنطقة منذ القديم وبقيت متداولة لديهم عند صغيرهم وكبيرهم، بحيث لا يمكنهم الإقلاع عنها، لأنها صارت جزءا من كلامهم اليومي.. ومن هذه الظاهرة نذكر بعض الأمثل على النحو الآتي :

السميْشة ، قهيْوة؛ كسيْرة ؛ مريْرة ؛ الدويْرة ؛ الطفيْل ؛ الطفيْلة ؛ الطعيْمة ؛ اللقيْمة ؛الجقيْمة؛ اللحيْمة ؛ درنا قعيْدة زينة: أي قعدة بمعنى جلسة جميلة مفيدة.

4.7 ظاهرة النحت والاختصار:

هي ظاهرة كثيرة التداول والاستعمال، وذلك بإدماج عدة كلمات في كلمة واحدة، مع اختصار الكلمة الأخيرة في حرف الشين من آخر الكلمة الأولى مثل:(ما عليهش = ما عليه شيء) ؛ (مْنين = من أين) ؛ فلان: ما فيدوش = ما في يده اي شيء، بمعنى فقير)؛ ما عندوش= ما عنده شيء؛ سمعتش خبر فلان؟ = هل سمعت أي خبر عن فلان. (الشين هنا للاستفهام)..

8. خاتمة:

تختلف اللهجة الشعبية عن اللغة العربية الفصحى في نظامها الصوتي والصرفي والنحوي وحتى الدلالي، كما تتميز كل لهجة عن غيرها من اللهجات في مختلف المناطق، على الرغم من وجود تقارب كبير بين اللهجات، ولا سيما لهجات القطر الواحد. وعلى الرغم من كون اللغة الفصيحة هي الأصل فإنّ اللهجات قد طغت عليها وأصبحت بمنزلة اللغة المسيطرة على المجتمعات، باعتبارها اللغة اليومية المتداولة بين الناس، فهي تخضع للمنطوق عكس العربية الفصيحة التي تستعمل في المداس والمؤسسات الرسمية عن طريق الكتابة والقراءة ..

هذا، ولم تعد النظرة للّهجة كما كانت من قبل، على أنها خصم يريد إبعاد اللغة الفصيحة، بل قد أصبحت اللهجة واقعا فرضته الحياة المعيشية وعوامل متعددة، جغرافية وتاريخية وحضارية وثقافية وغيرها. وليست اللهجة بديلاً للفصحى وإنما هي وعاء يحمل فكر المجتمعات وتصوراتها ومعاملاتها اليومية في الأوساط الشعبية العامة. وتبقى اللغة الفصيحة هي الوسيلة المثلى للتواصل، إذْ بها يتصل الانسان مع مجتمعه وسائر المجتمعات الأخرى، باعتبارها لغة واحدة موحدة للمجتمعات العربية، كما أنّ العربية من أعرق اللغات عبر العصور، وهي التي نزل بها القرآن الكريم،

وهي التي تمثل المستوى الفصيح للغة، وجود اللهجات لا يعمل على إض[25]عاف اللغة العربية، فالعربية لا تمنع الناس من توظيف اللهجات للتواصل والتفاهم بين الناس.. كما أنّ اللهجة الشعبية تهتمّ كثيرا باستعمال ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه..

انطلاقا ممّا سبق، فإنّ اللهجة الشعبية يجب أن تكون داعمة للعربية عبر الوظائف الحياتية والوجدانية، في علاقة تكامل وتواشج لتحقيق المقاصد بأفضل العبارات وبأيسر السبل، خصوصا مع تطور الحياة ومتطلباتها في هذا العصر. ومن أقوى الدلائل على اللحمة القائمة بين اللهجة الجزائرية واللغة الفصيحة ما نجده من تواشج وترابط عند مقاربة هذه بتلك والقيام بتأصيل اللهجات الشعبية في مختلف المناطق الجزائرية، إذ نجد تشابها كبيراً وتكاملا يتجلى في تقارب البيئة التي تنحدر منها كل منهما، والأوضاع التي تستعمل فيها، فلا يكاد يقع الاختلاف والتباين في أكثر الأحيان إلاّ في ذلك التحوير الصوتي أو التصرف في بعض الاستعمالات، نظرا لطبيعة المتكلمين وظروف الاستعمال..

9.المراجع والهوامش:

[1]– بوفاتح عبد العليم،" أهمية التنوع اللغوي ودوره في مواكبة الحضارة في عصر التكنولوجيا." مداخلة مقدمة في جلسات المؤتمر الدولي: " التعدد اللغوي والتنمية البشرية "، بجامعة مولود معمري– تيزي وزو الجزائر، أيام: 7و8و9 نوفمبر 2017.

[2]– كمال بشر، علم الاجتماع اللغوي، دار غريب للطباعة والنشر(دط)، 1997، ص29.

[3]– عز الدين صحراوي ،اللغة بين اللسانيات واللسانيات الاجتماعية ، مجلة العلوم الإنسانية، العدد الخامس، فيفري 004.

[4]– ينظر:الدكتور هادي نهر،التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية،ط1 (1429هـ) ص17 وما بعدها .

[5]–خالد عبد الرازق ،اللغة بين النظرية والتطبيق،مركز الإسكندرية للكتاب(2003) ص43

[6]–كمال بشر،:علم اللغة الاجتماعي،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،(1997) ص27 وما بعدها .

[7]– محمد البشير الإبراهيمي،آثاره، ط1/ دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 281/3(1997)

[8]– عبدالحميد بوترعة، واقع الصحافة الجزائرية المكتوبة في ظل التعددية اللغوية، مقال بمجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية،جامعة الوادي (عدد8 سبتمبر 2014)، ص214 (عن لغة الصحافة المعاصرة لمحمد حسن عبد العزيز، دار المعارف،القاهرة ،ص04)

[9]– ينظر: د. صالح بلعيد، اللغة العربية آلياتها الأساسية وقضاياه االراهنة ،ص128، 132

[10]– الدكتور صالح بلعيد، المواطنة اللغوية، دار هومة، الجزائر(2008) ص4

[11]– العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة، ص194

[12]– ابن فارس، المقاييس اللغة، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء 4، (دط، دت)، ص18.

[13]–الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق : عبد الحميد الهنداوي، الجزء 3 ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2002 ، ص233.

[14]– علي ناصر غالب، اللهجات العربية، لهجة قبيلة أسد، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010، ص33.

[15]– عبد الرحمن الحاج صالح ، اللغة العربية بين المشافهة والتقرير، مجلة مجمع اللغة العربية الجزائري، العدد 66، ص117.

[16]–علي عبد الواحد الوافي، فقه اللغة العربية ،دار النهضة للطباعة،القاهرة ، ط7 ،1972، ص153.

[17]– صفاء محمد عطية حسن،الازدواجية اللغوية بين الفصحى والعامية،بحث مقدم لاستيفاء متطلبات درجة البكالوريوس في اللغة العربية، جامعة السودان، 2014، ص32.

[18]– عائشة عبد الرحمن،لغتنا الجميلة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة1، ص20.

[19]– ينظر: أبو بكر مرزوق ،معجم فصيح العوام رصد لملفوظات المنطقة السهبية ، ص7 .

[20]– نفس المرجع ، ص 9 .

[21]– محمد عبد الله عطوات، اللغة العربية الفصحى والعامية، دار النهضة العربية ، بيروت، لبنان ، ط1 ، 2003 ، ص48.

[22]– العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى،ص6.

[23]– التخي عبد الله بن كريو: أحد اشهر الشعراء الشعبيين الجزائريين، ولد بمدينة الأغواط في العام 1871م، اشتغل قاضيا وعُرف بمقاومته للاستعمار وتعرض للنفي، شعره كثير الرموز متعدد الأغراض ؛ اشتهر بشعر الحكمة والغزل، توفي في العام 1921م.

[24]– هذه الظواهر كثيرة جداً في لهجة منطقة غرب شمال الصحراء بحيث لا حصر لها، وقد أوردنا ههنا نماذج وعينات على سبيل المثال فقط.